الفصل الثاني: النثر

الكتابة

الإنشاء مظهر العقل، ومرآة الخاطر، يتأثر بما ينال المدارك والمشاعر من عوامل الحضارة، ونتائج العلم، وظواهر العمران.

ولقد كان لذلك الانقلاب العباسي أثر عظيم في العقول والميول ظهر على أقلام الكاتبين وألسنتهم. فقد استنبطوا عيون المعاني. وتخيروا شريف الألفاظ، مما لم يكن حوشياً ولا سوقياً، وفتحوا أبواب البديع، وعنوا بالتنميق والتنسيق.

ولما استبحر العمران، وطما بحر الخراج، واتسع نطاق الدولة، لم تعد الكتابة مقصورة على الدواوين وإنشاء الرسائل كما كانت في الدولة الأموية، بل تعدتها إلى أغراض شتى، كالتصنيف والترجمة، والمقالات والمقامات، والعهود، والوصف، والمناظرة، وإنشاء الكتب في الإهداء والاستهداء، والتعارف قبل اللقاء، والشكر والعتاب والتعازي والتهاني والاستعطاف، وغير ذلك من المعاني الحضرية لتي لم يعهد أكثرها مكن قبل.

وحلت الكتابة محل الخطابة في قمع الأهواء، وردع الأعداد، وإطفاء الفتن، وتأليف القلوب. ثم تنوع الكتاب بتنويع الدواوين: فكان منهم كتاب الخراج والنفقات، وكتاب المظالم والقضاء، وكتاب الجيش والشرطة، وكتاب الضياع والإقطاع، وكتاب الرسائل، وهؤلاء هم أساطين البلاغة وأستاذو البيان، وموضوع أدب اللغة؛ لأن كتابة غيرهم لا تعتمد على فن ولا تقوم على ذوق.

وظلت الكتابة في أول العصر العباسي على أسلوب عبد الحميد من الميل إلى الإيجاز[1] والقصد في الغلو والتنميق، ولاسيما في الرسائل والتوقيعات، فإن النظر فيها أكثر ما يكون للخلفاء والوزراء، عنهم تصدر، وإليهم ترد. وكان

---

(1) أسلوب عبد الحميد موجز إذا ووزن بما استحدث بعده من الأساليب، ومطنب إذا ووزن بما قبله.

جعفر ابن يحيى يقول في إيثار الإيجاز. " إن استعطتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا ".

فلما نزع العرب إلى الترف، وزاد اختلاطهم بالفرس، أخذوا يتأنقون ويطيلون. وازداد ذلك بتراخي الزمن حتى خرجوا عن أساليب القدماء، وعاقبوا الجمل على المعنى الواحد، وراوا ذلك التكرار أبلغ للمعنى، وأوقع في النفس. وانتقدوا مذهب الإيجاز في صدر الإسلام وبعده كقول يزيد لمروان وقد تلكأ في بيعته: " أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئت " فقال ابن قتيبة في أدب الكاتب. " إن هذا لو قيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب. والصواب أن يطيل ويكرر، وبعيد ويبدئ، ويحذر وينذر ". ثم مالوا إلى الازدواج والسجع، وتضمين الأشعار والأمثال. وكل ذلك جار مجرى الطبع لحسن التصرف في المعنى وقلة التكلف في اللفظ.

فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله، سرى الضعف إلى الكتابة، فجهل أربابها الغرض منها، ومالوا إلى زخرف القول وتدبيج اللفظ بأنواع البديع، وأوغلوا في ذلك حتى سمجت مبانيهم وفسدت معانيهم، فكانت مموهة الظاهر مشوهة الباطن، كسيف من الخشب في غمد من الذهب. وليتهم وقفوا بهذا الأسلوب عند الرسائل والعهود، بل خرجوا به إلى تصنيف الكتب وتدوين العلوم، كتاريخ العُتْبي والفتح القدسي.

وكتاب هذا العصر أربع طبقات نبعت كل طبقة في عصر من عصوره الأربعة [1]؛ فالطبقة الأولى إمامها ابن المقفع. وطريقته تنويع العبارة، وتقطيع الجملة، والمزاوجة بين الكلمات، وتوخي السهولة، والعناية بالمعنى، والزهد في السجع [2]. وقد حد البلاغة فقال: " هي لتي إذا سمعها الجاهل ظن أنه

---

(1) يقسم العصر العباسي إلى أربعة أعصر تبعاً لأحواله السياسية والاجتماعية، فالعصر الأول من ابتدائه إلى خلافة المتوكل سنة 232. والثاني من خلافة المتوكل إلى استقرار الدولة البويهية في بغداد سنة 334. والثالث من تغلب البويهين إلى دخول السلاجقة بغداد سنة 447 والرابع من دخول السلاجقة بغداد إلى سقوطها في أيدي التتر سنة 656.

(2) قال ابن أبي الإصبع في تحرير التحبير: قد كان المتقدمون لا يحفلون بالسجع جملة، ولا يقصدونه بتة إلا ما أنت به الفصاحة في أثناء الكلام، واتفق من غير قصد ولا اكتساب وإن كانت

يحسن مثلها ". وقال لبعض الكتاب: " إياك وتتبع الوحشي من الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكبر ". وقال لآخر: " عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفه ". ومن رجال هذه الطبقة يعقوب ابن داود، وجعفر ابن يحيى، والحسن ابن سهل، وعمر ابن مسعدة، وسهل ابن هرون، والحسن ابن وهب.

والطبقة الثانية إمامها الجاحظ. وطريقته أشبه بالطريقة الأولي في سهولة العبارة وجزالتها، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل، والاستطراد، ومزج الجد بالهزل لدفع سآمة القارئ، وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدعائية. ومن رجال هذه الطبقة ابن قتيبة والمبرد والصولي.

والطبقة الثالثة إمامها ابن العميد وطريقته أعلق بالنفس وأملك للوجدان لأنها شعر لا يعوزه إلا الوزن. وهي أشبه بالطريقة [1] الاتباعية عند الفرنج لتقيدها بقيود لابد من مراعاتها وتغلبها على سائر الأساليب.

فمن قيودها السجع القصير، والجناس، وتضمين الملح من التاريخ والعلوم، والاستشهاد بالنظم في غضون النثر، والتوسع في الخيال والتشبيه؛ مع إجادة المعنى وسلامته. ومن رجالها الصاحب ابن عباد، والوزير المهلبي، والخوارزمي، والبديع، والصابي، والثعالبي. ومن آثار هذه الطبقة المقامات.

والطبقة الرابعة إمامها القاضي الفاضل. وطريقته مؤسسة على أصول الطريقة الثالثة من توخي السجع والبديع، إلا أنه غالى في التورية والجناس

=

كلماتهم متوازنة، وألفاظهم مناسبة، ومعانيهم ناصعة، ومباراتهم رائعة، وفصولهم متقابلة. وتلك طريقة الإمام علي عليه السلام ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام كابن المفقع وسهل ابن هارون والجاحظ وغير هؤلاء من العلماء والبلغاء أ هـ.

(1) آثرنا أن نترجم Ecole Classique بالطريقة الاتباعية Ecole Romantlque بالطريقة الابتداعية؛ فإن الإتباع والابتداع أقرب اللفاظ دلالة على معنى هذين المذهبين وبهذا الرأي أخذ مجمع اللغة العربية.

حتى أصبحت الكتابة في عهد صناعية محضاً. ألفاظ منمقة تحتها معنى غث وخيال ضئيل. ومن رجالها ابن الأثير صاحب المثل السائر، والكاتب الأصبهاني.

على أن عقيدة الكتاب أن استظهار المأثور من المنثور هو عدة الثقافة وسبيل التفوق كانت تخالف بين الأقلام، وتباعد بين الأساليب، فتعددت مذاهب الكتابة في العصر الواحد، فتجد في عصر الجاحظ من يقلد ابن المقفع كابن عبد ربه. وفي عصر ابن العميد من يقلد الإمام عليا كالشريف الرضى. ولكن المعاصرين بالرغم من ذلك يخضعون لأحوالهم السياسية والاجتماعية، فيكون لإنشائهم طابع خاص يميزهم من باقي العصور.

الخطابة

كان للخطابة في صدر هذا العصر مكانة في النفوس وسلطان على القلوب؛ لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك، وتحميس الجند؛ واستقبال الوفود. وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع والشأو البعيد، كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وداود [1] ابن علي وخالد ابن صفوان وشبيب [2] ابن شيبة.

فلما استوثق الأمر لبني العباس وقام الموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش، وقل النضال بالسنان واللسان، ضعفت الخطابة لضعف القدرة عليها، وقلة الدواعي إليها، وحلت الرسائل والمنشورات محلها في دفع العظائم وسل السخائم. وقصرت على خطب الجمع والعيدين والزواج. على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمونهم إلى عهد الخليفة الراضي. فلما غل بنو بويه أيديهم وحصروهم في دورهم عهدوا بالخطابة والإمامة إلى الكفاءة من العلماء؛ فنبغ في آخر هذا العصر طائفة من الأدباء شهروا بهذا النوع من الخطابة: كالخطيب البغدادي والخطيب التبريزي. ولما استعجم المسلمون

---

(1) نشأ داود بن علي بن عبد الله بن عباس مع إخوته الاثنين والمشمرين في قرية الحميمة من أعمال عمان. وهي منفى أبيه في عهد الوليد ابن عبد الملك، فاقتبس العلم من أبيه واكتسب الفصاحة من خلاطه قبائل لخم وغسان وقيس. ثم شهر بالشجاعة والأنفة وصلابة الرأي وحرية الفكرة وقوة المنطق فولاه أبو العباس عام بيعته الكوفة وسوادها ثم أضاف إليه في تلك السنة ولاية الحجاز واليمن واليمامة فوطد الملك لبني العباس في تلك الأصناع، ونكل بمن وجد فيها من بني أمية ثم استقر قراره بالمدينة بعد موسم الحج، فأدركته منيته فيها شهر ربيع الأول سنة 133 هـ

(2) نشأ شبيب بن شبيبة بن عبد الله المنقري التميمي في البصرة على خير ما تنشأ عليه الرجال من العزة والأريحية والتواضع والعفة، وابتدأ منذ اليفوعة يحوك الكلام ويهصب بالحطب في حلاوة وسهولة وعذوبة، ومازال يزداد حتى صار في كل موقف يساغ بقليل الكلام ما لا يبلغ الخطباء المصاقع بكثيره، سمعه عمه خالد ابن صفوان خطيب تميم يوم يخطب قومه، فقال له: يا بني لقد نعى إلى نفسي إحسانك في كلامك، فإنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله. فقال له شبيب: بل ببنيك الله ويجعلني فداءك. وكان شبيب من خاصة المنصور قبل خلافته وبعدها وبقيت له هذه الخطورة لدى ولي عهده المهدي، فكان من خلطائه الأدنيين حتى توفى سنة 175 هـ.

وملك العي ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباتة المصري، وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها، ولا علم بمغزاها. ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى أدركتها عوامل النهضة المصرية الحديثة فرقاها قسم الوعظ والإرشاد بالجامعة الأزهرية.

نماذج النثر

التوقيعات

التوقيعات هي ما يعلقه الخليفة أو الأمير أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم إليه من الكتب في شكوى حال أو طلب نوال. وميزتها الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة. وقد تكون آية أو مثلا أو بيت شعر. مثالها:

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يحارب ابن هبيرة بواسط: إن حلمك أفسد علمك، وتراخيك أثر في طاعتك. فخذ لي منك، ولك من نفسك.

وقع أبو جعفر المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان: شكوت فأشكيناك، وعتبت فأعتبناك، ثم خرجت على العامة، فتأهب لفراق السلامة. ووقع إلى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: طهر عسكرك من الفساد، يعطك النيل القياد. ووقع في كتاب أتاه من صاحب الهند بخبره أن جنداً شعبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال: لو عدلت لم يشغبوا، ولو وفيت لم ينهبوا.

وقع هارون الرشيد إلى صاحب خراسان؛ داو جرحك لا يتسع. ووقع في نكبة جعفر ابن يحيى أنبتته الطاعة وحصدته المعصية.

وقع المأمون إلى الرستمي في قصة من تظلم منه: ليس من المروءة أن تكون آنيتك من ذهب وفضة، وغريمك خاو، وجارك طاو. ووقع في قصة متظلم من أبي عيسى أخيه: (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون). وكتب إليه إبراهيم ابن المهدي: إن غفرت فبفضلك، وإن أخذت فبعدلك. فوقع في كتابه: القدرة تذهب الحفيظة، والندم جزء من التوبة وبنهما عفو الله، ووقع في رقعة مولى طلب الكسوة: لو أردت الكسوة للزمت الخدمة، ولكنك آثرت الرقاد فحظك الرؤيا.

وقع جعفر بن يحيى في قصة محبوس: العدل أوثقه، والتوبة تطلقه ووقع في كتاب رجل شكا إليه بعض عماله: قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت.

ووقع في قصة مستمنح قد أعطاه مراراً: دَعِ الضرع يدر لغيرك كما دَرَّ لك.

الخطب

خطب المنصور بعد قتل أبي مسلم قال:

أيها الناس: لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة لمعصية، ولا تستروا غش الأئمة؛ فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثار يده، أو فلتات لسانه، وأبداها الله لإمامه، لإعزاز دينه وإعلاء حقه إنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه. إن من نازعنا عروة هذا القميص أجززناه خبىء هذا الغمد. إن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أن من نكث فقد أباح دمه، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه.

ومن خطبة لعبد الملك بن صالح الهاشمي بعد أن خرج من السجن يذكر فيها ظلم الرشيد إياه:

والله إن الملك لشيء ما يؤتيه ولا تمنيته، ولا قصدت إليه ولا ابتغيته. ولو أردته لكان أسرع إلي من السيل إلى الحدود، ومن الناري إلى يابس العرفج. وإني لمأخوذ بما لم أجن، ومسئول عما لا أعرف. ولكنه والله حين رآني للملك قمنا، وللخلافة خطراً، ورأى لي يداً تنالها إذا مدت، وتبلغها إذا بسطت، ونفساً تكمل لخصالها، وتستحقها بخلالها. – وإن كنت لم أختر تلك الخصال، ولا اصطنعت تلك الخلال، ولم أترشح لها في سر، ولا أشرت إليها في جهر، ورآها تحن إلى حنين الوالدة، وتميل إلى ميل الهلوك، وخاف أن تنزع إلى أفضل منزع، وترغب في خير مرغب، عاقبني عقاب من قد سهر في طلبها، ونصب في التماسها. وتفرد لها بجهده وتهيأ لها بكل وسعه، فإن كان إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي، وأليق بها وتليق بي، فليس ذلك بذنب فأتوب منه، ولا تطاولت إليه فأحط نفسي عنه. وإن زعم أنه لا صرف لعقابه، ولا نجاة من عذابه، إلا بأن أخرج له من الحكم والعلم، والحزم والعرم، فكما لا يستطيع المضيع أن يكون حافظاً، كذلك لا يستطيع العاقل ان يكون جاهلا، وسواء عليه أعاقبني على عقلي أم عاقبني على طاعة الناس لي. ولو أردتها

لأعجلته عن التفكير، وشغلته عن التدبير، ولم يكن لما كان من الخطب إلا اليسير. ومن المجهود إلا القليل!

وخطب داود بن علي يوم بيعة أبي العباس على منبر الكوفة قال:

شكراً شكراً! إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً، ولا لنبني فيكم قصرا. أظن عدو الله أن لن نقدر عليه أن رُوخي له من خطامه، حتى عثر في فضل زمامه؟ فان حيث أخذ القوس باريها، وعاد القوس إلى النزعة، ورجع الملك إلى نصابه. في أهل بيت النبوة والرحمة، أمن الأسود والأحمر. ولكم ذمة الله. لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم. لكم ذمة العباس. لا ورب هذه البنية – وأومأ إلى الكعبة – لا نهيج منكم أحداً.

وخطب شبيب بن شيبة يعزي المهدي يوم توفيت ابنته قال:

أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزقت أجراً، وأعقبك صبراً، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة، ولا نزع منك نعمة. ثواب الله خير لك منها. ورحمة الله خير لها منك، وأحق ما ثبر عليه ما لا سبيل إلى رده!

الرسائل

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلها:

بلغني استقلالك لما ألطفنك. ولذي تحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك في البر، فأهدينا هدية من لا يحتشم، إلى من لا يغتنم.

وكتب في تهنئة بابلاله من مرض:

قد أذهب الله وصب العلة ونصبها، ووفر أجرها وثوابها، وجعل فيها من إرغام العدو بعقباها، أضعاف ما كان من السرور بأولاها.

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عن لسان الخليفة لأحد العمال:

أما بعد: فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا تخلو من إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة، ولا يزيل لأئمة: إما تقصير في عملك دعاك إلى الإخلال بالحزم والتفريط في الواجب، وإما مظاهرة لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب. وأية هاتين كانت منك، وحلة للنكر بك، وموجبة للعقاب عليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة، والأخذ بالحجة، والتقدم في الأعذار والإنذار، وعلى حسب ما أقلت من عظيم العثرة يجب اجتهادك في تلافي التقصير والإضاعة. والسلام.

وكتب أبو الفضل ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري:

كتابي وأنا بحال لو لم ينغص منها الشوق إليك، ولم يرتق صفوها النزوع نحوك، لعددتها من الأحوال الجميلة، وأعددت حظى منها في النعم لجليلة، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة. ونعمة تامة، وحظيت منها في جسمي بصلاح، وفي سعي بنجاح، لكن، ما بقى أن يصفو لي عيش مع بعدي عنك، ويخلو ذرعي مع خلوي منك، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك. وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي، وناظم لشمل أنسي. وقد حرمت رؤيتك، وعدمت مشاهدتك. وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع أنس بيت لا نظام. قرأت كتابك – جعلني الله تعالى فداءك – فامتلأت سروراً بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك في لفظك. وما أقرظهما، فكل خصالك مقرظ عندي. وما أمدحهما، فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي. وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري.

المقامات

المقامة الحرزية لبديع الزمان الهمذاني

حدثنا عيسى بن هشام قال: لما بلغت بي الغربة باب الأبواب، ورضيت من الغنيمة بالإياب، ودونه من البحر وثاب بغاريه، ومن السفن عساف براكبه، استخرت الله في القفول، وقعدت من الفلك، بمثابة الهلك. ولما ملكنا البحر وجن علينا الليل، غشيتنا سحابة تمد من الأمطار حبالا، وتحوذ من الغنيم جبالا، بريح ترسل الأمواج زواجاً، والأمطار أفواجاً، وبقينا في يد الحين، بين البحرين، لا نملك عدة غير الدعاء، ولا حيلة إلا البكاء: ولا عصمة غير الرجاء. وطويناها ليلة نابغية، وأصبحنا نتباكى ونتشاكى، وفينا رجل لا يخضل جفنه، ولا تبتل عينه، رخى الصدر منشرحه، نشيط القلب فرحه. فعجبنا والله كل العجب. وقلنا له ما الذي آمنك من العطب؟ فقال: حرز لا يعزق صاحبه. ولو شئت أن أمنح كلا منكم حرزاً لفعلت. فكل رغب إليه، وألح في المسألة عليه. فقال لن أفعل ذلك حتى يعطيني كل واحد منكم ديناراً الآن ويعدني ديناراً إذا سلم. قال عيسى بن هشام: فنقدناه ما طلب، ووعدناه ما خطب، وآبت يده إلى جيبه فأخرج قطعة ديباج، فيها حقة عاج، قد ضمن صدرها رقاعاً، وحذف كل واحد منا بواحدة منها. فلما سلمت السفينة، وأحلتنا المدينة، اقتضى الناس ما وعدوه، فنقدوه. وانتهى الأمر إلي فقال دعوه. فقلت لك ذلك، بعد أن تعلمني سر حالك. قال: أنا من بلاد الإسكندرية. فقلت. كيف نصرك الصبر وخذلنا؟ فأنشأ يقول:

وبك لولا الصبر ما كنت ... ملأت الكيس تبرا

لن ينال المجد من ضاق ... بما يغشاه صدرا

ثم ما أعقبني الساعة ... ما أعطيت ضرا

بل به أشتد أزراً ... وبه أجبر كسرا

ولو أني اليوم في الغرقى ... لما كلفت عذرا

ومن المقامة البغدادية للحريري على لسان عجوز مستجدية:

اعلموا يا مآل الآمل، وثمال الأرامل، أني من سَرَوات القبائل، وسَريّات العاقل، لم يزل أهلي وبعلي يحلون الصدر، ويسيرون القلب، ويمطون الظهر، ويولون اليد. فلما أردى الدهر الأعضاد، وفَجَعَ بالجوارح الأكباد، وانقلب ظهراً لبعض، نبا الناظر، وجفا الحاجب، وذهبت العين، وفقدت الراحة، وصلد الزند، ووهنت اليمين. وضاع اليسار، وبانت المرافق، ولم يبق لنا ثنية ولا ناب. فمذ اغبر العيش الأخضر، وأزور المحبوب الأصفر اسود يومي الأبيض، وابيض فودي الأسود؛ حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر!